مجلة أبحاث ميسان ، المجلد الثاني والعشرون، العدد الثاني والأربعون ، كانون الاول ، السنة ٢٠٢٥

التحليل الهرمنيوطيقي في مشروع نصر حامد أبو زيد

السياق، المنهج، النتائج

الدكتور طــلال الحسـن

الباحثة ســهـام شنون عبد الله العقيلي

ملخَّص البحث:

يهدف هذا البحث إلى عرض وتحليل مشروع الهرمنيوطيقا القرآنيَّة لنصر حامد أبو زيد، مع تقديم نقد شامل ومتوازن لهذا المشروع الفكري الذي أثار جدلاً واسعاً في الأوساط الإسلاميَّة الحديثة.

يبدأ البحث بتوضيح المفهوم النظري للهرمنيوطيقا وأهمِّيَّتها في تفسير النصوص الدينيَّة، ثمَّ ينتقل إلى دراسة السيرة الفكريَّة لأبو زيد ومنهجه في إعادة قراءة القرآن كنص تاريخي وإنساني. يناقش البحث نتائج هذا المشروع من حيث تحوُّل فهم النص القرآني وتقويض السلطة التفسيريَّة التقليديَّة، وإحياء دور العقل في التأويل، كما يعرض البحث آراء النقَّاد المؤيِّدين والمعارضين، مع تحليل نقدي يبرز نقاط القوة والضعف في المشروع، وفي الختام يؤكِّد البحث على أنَّ مشروع أبو زيد مثَّل خطوة جريئة نحو تجديد الفكر الديني، مع توصيات لتطوير المنهج التأويلي بما يتناسب مع الخصوصيَّة الإسلاميَّة.

الكلمات المفتاحية : الهرمنيوطيقا، نصر حامد أبو زيد، التأويل القرآني، تفسير النص، العقلانيَّة الدينيَّة، تجديد الفكر الإسلامي، نقد التراث، النص والدين.

The Hermeneutical Analysis in Nasr Hamid Abu Zayd's Project: Context, Methodology, and Outcomes

Research Summary:

This study aims to present and critically analyze the hermeneutic project of the Quran by Nasr Hamid Abu Zayd, offering a comprehensive and balanced critique of this intellectual endeavor that sparked wide controversy in modern Islamic circles. The research begins by clarifying the theoretical concept of hermeneutics and its significance in interpreting religious texts, then moves to examine Abu Zayd's intellectual biography and his approach to rereading the Quran as a historical and human text. The study discusses the outcomes of this project, including the transformation of Quranic understanding, the undermining of traditional interpretive authority, and the revival of reason in interpretation. It also presents the views of supporters and opponents, providing a critical analysis highlighting the strengths and weaknesses of the project. In conclusion, the research emphasizes that Abu Zayd's project represents a bold step towards renewing religious thought, with recommendations for developing the interpretive methodology to suit Islamic specificity.

Key words: Hermeneutics, Nasr Hamid Abu Zayd, Quranic interpretation, Textual interpretation, Religious rationality, Renewal of Islamic thought, Critique of tradition, Text and religion.

المقدمة :

شهد الفكر العربي المعاصر تحوُّلات جوهريَّة في علاقته بالنصوص الدينيَّة، فكان أبرزها التحوُّل من التلقِّي السكوني للنص إلى التفاعل التأويلي معه، بحيث أصبح النص . وبالأخص النص القرآني . يُقرأ ضمن شبكة من الأنساق الثقافيَّة والاجتماعيَّة واللغويَّة. وقد أفرز هذا التحوُّل مشاريع فكريَّة عديدة تسعى إلى تحرير النص من القراءة التقليديَّة الجامدة، وكذلك إعادة إنتاجه في ضوء أدوات معرفيَّة جديدة مستمدة من مناهج العلوم الإنسانيَّة الحديثة. ومن أبرز هذه المشاريع هو مشروع المفكِّر المصري نصر حامد أبو زيد (١٩٤٣ . ٢٠١٠) الذي تبنَّى المنهج الهرمنيوطيقي بوصفه مدخلاً لفهم النصوص الدينيَّة، لا سيَّما القرآن الكريم.

لقد استند نصر أبو زيد إلى مقولة مركزيَّة مفادها أنَّ (النصوص لا تُفهم إلاَّ عبر تأويلها، وأنَّ القراءة ليست فعلاً محايداً، بل هي دائماً فعلٌ مشروط بسياقات ثقافيَّة وتاريخيَّة محددة). (أبو زيد، مفهوم النص، ص١٢). وقد تجلّى هذا المنظور بوضوح في مؤلَّفاته الأساسيَّة، خاصة كتابيه (مفهوم النص) و(نقد الخطاب الديني)، حيث سعى إلى تحليل النص القرآني من زاوية لغويَّة . تاريخيَّة، تستلهم مناهج الهرمنيوطيقا الغربيَّة التي بلورها مفكِّرون مثل: هانس جورج غادامر، وبول ريكور.

إنَّ الإشكاليَّة التي يطرحها هذا البحث تتمحور حول طبيعة هذا التوظيف: هل استطاع أبو زيد فعلاً دمج المنهج الهرمنيوطيقي في إطار السياق الإسلامي بنجاح؟ وما حدود هذا التوظيف؟ ثمَّ كيف أثَّر هذا التوجُّه في إعادة تشكيل علاقة المسلم بالنص، وما هي النتائج النظرية والعمليَّة المترتِّبة على ذلك؟

إنَّ مشروع نصر أبو زيد لا يمكن قراءته باعتباره مجرد محاولة (تأويليَّة) فحسب، بل يجب فهمه كـ (إعادة بناء شاملة لمفهوم النص، وعلاقته بالمقدَّس، وبالمجتمع، وبالسلطة)، ولذلك فإنَّ أهمِّيَّة هذا البحث تكمن في ما يلي:

أ . أنَّه يُسلِّط الضوء على واحدة من أكثر القضايا إشكالاً في الفكر الإسلامي الحديث، وهي مسألة تأويل النص.

ب . أنَّه يُعيد قراءة تراث نصر أبو زيد ضمن إطاره النقدي والفلسفي لا السياسي أو الإعلامي.

ج . أنَّه يُسهم في تقييم جدوى إدخال المناهج الغربيَّة في فهم النصوص الإسلاميَّة.

لقد اتَّبع نصر أبو زيد في مقاربته منهجاً مزدوجاً؛ فهو من جهة ينطلق من تأويلات الهرمنيوطيقا الحديثة، خصوصاً مفاهيم غادامر حول (أفق الفهم)، وريكور حول (تعدُّد المعاني في النص)، ومن جهة أخرى يُوظِّف مفاهيم من داخل العلوم الإسلاميَّة التقليديَّة، مثل: علم أصول الفقه وعلم البلاغة، ولكن من

خلال إعادة تأويلها. وقد صرَّح بأنَّ القرآن ليس >كلاماً إلهياً جامداً<، بل هو >نص حيٌّ يتفاعل مع الواقع<. (أبو زيد، نقد الخطاب الديني، ص٤٢)

ولا بدَّ من التأكيد هنا على أنَّ فهم هذا المشروع لا يكتمل إلاَّ بإدراك السياق الذي نشأ فيه سياق صراع ثقافي واجتماعي في مصر في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين، بين تيارات التحديث والتقليد، وكذلك بين الحداثيِّين والإسلاميِّين، حيث تحوَّل أبو زيد إلى رمز لصراع أعمق حول مَن يملك سلطة تأويل النص.

من هنا فإنَّ أهداف هذا البحث تتحدَّد في تحليل السياق العام الذي ولَّد هذا المشروع، وبيان خصائص المنهج الذي اعتمده أبو زيد، ومناقشة النتائج التي ترتَّبت على ذلك، ثمَّ في تقديم نقد معرفي متَّزن له يُقيمه من حيث قوَّته المنهجية، وكذلك من حيث نقاط الضعف والتجاوز.

أمَّا منهج البحث، فسوف يجمع بين:

أ ـ المنهج التحليلي لفهم الأطر النظرية والمنهجيَّة التي اعتمدها أبو زيد.

ب ـ المنهج النقدي لتقييم مدى انسجام المشروع داخلياً وخارجياً.

ج ـ المنهج المقارن في مقارنة منهجه بغيره من المناهج الهرمنيوطيقية الإسلاميَّة أو الغربيَّة.

وسيتوزع البحث على ثلاثة فصول رئيسة: الأوَّل منها مخصَّص لتحليل السياق الثقافي والسياسي والفكري الذي تشكَّل فيه وعي أبو زيد، أمَّا الثاني فيبحث في المنهج الهرمنيوطيقي الذي تبنَّاه وطوَّره عبر مؤلَّفاته، بينما يركِّز الثالث على النتائج والمواقف التي أسسها، مثل: إعادة تعريف الوحي والقراءة الجديدة للتراث. ويُختم البحث بفصل رابع نقدي يُعيد تقييم المشروع وفق رؤى معرفيَّة إسلاميَّة.

وباختصار فإنَّ هذا البحث لا يهدف إلى الدفاع عن نصر أبو زيد أو الهجوم عليه، بل إلى تفكيك مشروعه منهجياً، واستجلاء مضامينه النقديَّة والمعرفيَّة بما يسهم في النقاش العربي الإسلامي حول تأويل النص القرآني، وحدود التأثر بالمنهج الغربي.

نبذة عن حياة نصر حامد أبو زيد:

وُلِد نصر حامد أبو زيد في (١٠ يوليو ١٩٤٣) في إحدى قرى محافظة طنطا بمصر، ونشأ في بيئة مصريَّة تقليديَّة تمزج بين الفلاحيَّة والتديُّن الشعبي، وهو ما أثَّر في تكوينه المبكِّر وساهم لاحقاً في تشكيل حسِّه النقدي إزاء الخطاب الديني السائد. بدأت رحلته العلميَّة من خلال دراسته في قسم اللغة العربيَّة بجامعة القاهرة، حيث أبدى اهتماماً مبكِّراً بالبلاغة والنقد الأدبي، فتخرَّج عام (١٩٧٢)، وأكمل دراسته العُليا حتَّى حصل على درجة الدكتوراه في الأدب العربي عام (١٩٨١) برسالته الموسومة (فهم النص ـ دراسة في علوم القرآن عند ابن عربي)، وهي دراسة كشفت منذ وقت مبكِّر عن ميله للمزج بين التحليل النصِّي والدلالات الفكريَّة.

عمل أبو زيد لاحقاً أستاذاً للأدب والنقد في جامعة القاهرة، وتميَّز بطرحه الجريء ومشروعه الفكري الذي تمحور حول (إعادة قراءة النص الديني) عبر أدوات الهرمنيوطيقا الحديثة، معتبراً أنَّ النصوص الدينيَّة لا تُقرأ في فراغ، بل ضمن سياق اجتماعي وثقافي وتاريخي. كانت أطروحته ما بعد الدكتوراه سنة (١٩٩٠) حول (مفهوم النص)، وهي التي قفزت به إلى الواجهة الفكريَّة، حيث رأى فيها أنَّ القرآن الكريم ليس مجرد نصٍّ مقدَّس جامد، بل هو نص ثقافي يتفاعل مع الواقع وينتج دلالات متجدِّدة حسب شروط القراءة.

وقد أثار هذا المشروع الفكري زوبعة من الجدل في الأوساط الدينيَّة والأكاديميَّة؛ الأمر الذي اتُّهِمَ معه بالزندقة والإلحاد، وهو ما أدَّى في عام (١٩٩٥) إلى رفع دعوى ضده بالتكفير والتفريق بينه وبين زوجته الدكتورة ابتهال يونس، بدعوى أنَّه مرتد عن الإسلام، في واحدة من أشهر القضايا الفكريَّة التي شهدتها مصر المعاصرة. وبعد الحكم القضائي بفصله عن زوجته اضطر أبو زيد إلى مغادرة مصر قسراً إلى هولندا، حيث التحق بجامعة لايدن أستاذاً زائراً في الدراسات الإسلاميَّة، وواصل إسهاماته الفكريَّة من هناك.

في أعماله المتعددة مثل (مفهوم النص)، و(الخطاب والتأويل)، و(دوائر الخوف)، و(التفكير في زمن التكفير) تبنَّى أبو زيد خطاباً نقدياً يسعى لتفكيك القراءات التراثيَّة للنص القرآني، داعياً إلى الانفتاح على العلوم الإنسانيَّة الحديثة كمدخل لفهم أعمق وأشمل للنص الديني، كما طالب بضرورة إعادة الاعتبار للعقل في عملية التأويل، بدلاً من التسليم المطلق للمرويات والتفاسير التقليديَّة.

وعلى الرُّغم من محنة النفي والتكفير فإنَّ نصر حامد أبو زيد ترك بصمة واضحة في الفكر الإسلامي الحديث، بوصفه من أبرز المدافعين عن حرية التفكير والاجتهاد، ومن دعاة (علمنة التأويل) دون نزع القداسة عن النص، بل إعادة توجيه القداسة نحو (الفهم المنفتح).

توفِّي نصر حامد أبو زيد في (٥ يوليو ٢٠١٠) إثر إصابته بفيروس نادر خلال زيارة إلى المغرب، عن عمر ناهز السابعة والستين، لكنه بقي حياً بفكره وإسهاماته التي ما زالت تُثير الحوار وتستفز العقل العربي للإجابة عن أسئلته المؤجَّلة.

الفصل الأول: السياق العام لمشروع نصر حامد أبو زيد:

لا يمكن فهم أيَّ مشروع فكري بمعزل عن السياقات التي تشكَّلت فيها بنيته الأولى، وتبلورت فيها إشكالاته المعرفيَّة. فالأفكار لا تُولد في الفراغ، بل هي استجابات نقديَّة وتفاعليَّة لواقع اجتماعي وثقافي وسياسي معيَّن. وينطبق هذا الأمر بوضوح على مشروع نصر حامد أبو زيد الذي لم يكن مجرد تأمُّل نظري في النصوص، بل كان مشروعاً تأويلياً نهضوياً نشأ في قلب معركة فكريَّة حادة بين قوى التحديث وقوى التقليد في العالم العربي، خاصة في مصر نهاية القرن العشرين.

لقد عاش أبو زيد مرحلة ما بعد النكسة (١٩٦٧)، وواكب التحوُّلات الكبرى التي عرفها الفكر العربي بعد الهزيمة، ومنها صدمة الحداثة، وانهيار الأيديولوجيات، وفقدان الثقة بالموروث السياسي والديني. وقد انعكس هذا في تركيزه على (تفكيك البنية المعرفيَّة للخطاب الديني التقليدي)، لا باعتباره خصماً للدين، بل خصماً لطريقة فهمه التي أنتجتها السلطة والمؤسَّسة على مرّ العصور. (أبو زيد، نقد الخطاب الديني، ص١٩).

أولاً: السياق السياسي والاجتماعي في مصر:

شهدت مصر خلال السبعينيات والثمانينيات صعوداً سريعاً للتيارات الإسلاميَّة، مع انسحاب الدولة من مجال الثقافة والتعليم، وتوازياً مع ذلك نشأت نخب فكريَّة تسعى إلى تقديم مشروع عقلاني يُقاوم المدّ السلفي. وكان نصر أبو زيد من بين من صاغوا خطاباً عقلانياً حداثياً يردّ على التقليديَّة الدينيَّة لا من باب الإلحاد أو الرفض، بل من باب إعادة قراءة النص في ضوء تحوُّلات المجتمع.

وقد تعرَّض أبو زيد لمحاولات التشويه والإقصاء نتيجة قراءته التأويليَّة التي اعتُبرت خروجاً عن الإجماع، وبلغ الأمر حدَّ الحكم القضائي بردَّته في قضية (الحسبة) عام ١٩٩٥، الأمر الذي كشف عن هشاشة العلاقة بين الفكر الحرّ والمؤسسات الدينيَّة والقانونية في العالم العربي. وقد وصف أبو زيد هذه التجربة بأنها >كشف مؤلم لحدود الحرية الفكريَّة في مجتمع يدَّعي الحداثة<. (أبو زيد، التفكير في زمن التكفير، ص٧)

ثانيا: السياق الفكري والثقافي:

من الناحية الفكريَّة، تأثر أبو زيد بعدة تيارات أساسية:

١. التراث النقدي الإسلامي، لا سيما علم أصول الفقه والبلاغة، حيث وجد فيهما بوادر هرمنيوطيقية قابلة للتفعيل.

٢. المناهج الغربية الحديثة، وبخاصة البنيوية والتفكيكية والهرمنيوطيقا التي وجد فيها أدوات قادرة على تفكيك (أسطرة النص) وإعادة وضعه ضمن سياقه التاريخي.

وقد كتب يقول: >ليس النص القرآني في ذاته هو موضع الإشكال، بل طريقة تعاملنا معه، أي التحوُّل من النص إلى الخطاب، ومن المعنى إلى السلطة<. (أبو زيد، مفهوم النص، ص٢١)

إنَّ تداخل هذه السياقات (التراثية والحداثية) هو ما منح مشروعه خصوصيته، فهو ليس استمراراً خالصاً للمناهج الغربية، ولا هو تكرار لنزعات إصلاحية داخليَّة، بل هو دمج جدلي بين المنهج التأويلي الغربي والرؤية النقديَّة الإسلاميَّة.

٣.التكوين العلمي والجامعي

درس نصر أبو زيد في كلية الآداب بجامعة القاهرة، وحصل على الدكتوراه في الأدب العربي، وكان متخصصاً في النصوص القديمة، مما أهَّله لفهم عميق للبنية اللغويَّة للقرآن، ومن ثمَّ الانطلاق من هذا الفهم إلى تصور شامل حول (لغويَّة الوحي). وقد رأى أنَّ النص الديني خاضع لقوانين اللغة كباقي النصوص، ولا يمكن فصله عنها. وهو ما أكده بعبارته الشهيرة: >القرآن نصّ لغوي، يتشكّل داخل ثقافة بشرية، ومن ثمَّ فهو منتَج ثقافي كذلك<. (أبو زيد، نقد الخطاب الديني، ص٦٣)

وقد أسس عبر هذه الرؤية لما يمكن تسميته بـ (هرمنيوطيقا إسلاميَّة معاصرة)، لا تتنكر للمقدَّس، ولكن تعيد التفكير في كيفية حضوره عبر اللغة والتاريخ.

إنَّ مشروع نصر حامد أبو زيد نشأ من رحم أزمة متعددة الأبعاد؛ أزمة قراءة النص، وأزمة السلطة، وأزمة المجتمع، وهو ما جعله مشروعاً حساساً يتقاطع فيه الديني بالسياسي، واللغوي بالفلسفي، والتقليد بالحداثة. ولم يكن تأويل النص عنده فعلاً معرفياً فقط، بل فعلاً مقاوماً للجمود والاستبداد والتسييس، وبالتالي فإنَّ الدخول إلى صميم مشروعه لا بدَّ أنْ يبدأ بفهم هذه السياقات مجتمعة؛ لأنَّ القراءة خارجها تؤدي بالضرورة إلى اختزالٍ مخلٍّ أو إلى إسقاطٍ غير دقيق.

الفصل الثاني: المنهج الهرمنيوطيقي في مشروع نصر حامد أبو زيد

ارتبط مشروع نصر حامد أبو زيد منذ بدايته بمسألة مركزيَّة تتعلّق بإمكانية إعادة قراءة النص الديني ـ وبخاصة القرآن الكريم ـ بطريقة تتجاوز التفسير السلفي التقليدي من جهة، والخطاب الإيديولوجي من جهة أخرى، نحو قراءة تأويليَّة تُراعي البنية اللغويَّة والتاريخيَّة للنص. ومن هنا، شكَّل المنهج الهرمنيوطيقي ـ وهو

علم تأويل النصوص . الركيزة الأساس التي انطلق منها أبو زيد في محاولة تأسيس (علم قراءة) جديد للنص القرآني، يستند إلى مفهوم النص كخطاب لا ككلام إلهي مطلقٍ خارج الزمن.

١. تعريف الهرمنيوطيقا وإطارها النظري

الهرمنيوطيقا (Hermeneutics) هي علم التأويل الذي نشأ في الأصل لتفسير النصوص المقدَّسة، ثمَّ تطوَّر ليشمل تأويل كل خطاب إنساني، لا سيَّما الأدبي والفلسفي. وقد شهدت تحوُّلاً جذرياً مع فيلهلم دلتاي ثمَّ غادامر وبول ريكور، حيث لم تعد عملية الفهم تدور حول (اكتشاف المعنى الأصلي) فقط، بل حول إعادة إنتاج المعنى من خلال تفاعل القارئ مع النص، في سياق تاريخي ومعرفي معيّن.

ويعدُّ هانس جورج غادامر أبرز من صاغ مفهوم (أفق الفهم) (Horizon of Understanding)، والذي يعني أنَّ القارئ لا يقرأ النص من فراغ، بل من داخل أفق معرفي وثقافي يحدد كيفية فهمه. كما أنَّ المعنى لا يُستخرج من النص بقدر ما يُنتج عبر الحوار بين النص والقارئ. (Gadamer, Truth and Method, 1975).

وقد استفاد نصر أبو زيد من هذه الرؤية في بلورة موقفه التأويلي، إذ يرى أنَّ النص القرآني لا يمكن أن يُفهم بمعزل عن سياقات القارئ وتاريخه وثقافته، بل إنَّ >كل قراءة هي تأويل، وكل تأويل هو إعادة إنتاج للمعنى في ضوء شروط القارئ<. (أبو زيد، مفهوم النص، ص٨٩)

٢.تحوُّل النص إلى خطاب: البنية والمنهج

اعتمد أبو زيد في منهجه على ما يسميه بـ (التحوُّل من النص إلى الخطاب)، بمعنى أنَّ القرآن، بوصفه نصاً لغوياً، لا ينبغي التعامل معه على أنَّه نصٌّ متعالٍ ومفارق، بل يجب فهمه كخطابٍ تاريخي لغوي حي توجَّه إلى جماعة بشرية لها شروطها ووعيها وثقافتها.

وقد لخَّص هذا الموقف بقوله: >القرآن لم ينزل على فراغ، بل نزل على واقع محدد وتفاعل معه؛ لذلك لا يمكن قراءته اليوم بمعزل عن شروط نزوله الأولى، كما لا يمكن عزله عن شروط قارئه الحاضر<. (أبو زيد، نقد الخطاب الديني، ص٤٩)

وبهذا المعنى، فإنَّ القراءة عنده ليست (استنباطاً) بقدر ما هي إعادة إنتاج، كما أنَّ التأويل لا يستند إلى قواعد ثابتة مسبقة، بل إلى شبكة من الفرضيات المعرفيَّة والثقافيَّة.

٣.أدوات المنهج الهرمنيوطيقي عند أبو زيد

قام مشروع أبو زيد على استخدام أدوات متعددة، منها:

أ. التحليل اللغوي البنيوي

اعتمد على تحليل بنية الخطاب الديني من حيث المصطلحات والرموز، مستفيداً من اللسانيات الحديثة، حيث يرى أنَّ >النص هو شبكة من العلاقات اللغويَّة، وأنَّ أي معنى للنص يجب أن يُفهم في سياق البنية وليس المفردة فقط<. (أبو زيد، الخطاب والتأويل، ص٦٧)

ب. القراءة التاريخيَّة

رفض فكرة أنَّ النص القرآني يُقرأ بوصفه خطاباً أزلياً متعالياً، ودعا إلى إدخاله في سياق التاريخ. وقد كتب يقول: >الخطاب الديني لا ينفصل عن ظروف إنتاجه، وبالتالي فإنَّ تفسيره اليوم يتطلب فهم بنيته التاريخيَّة والاجتماعيَّة<. (أبو زيد، الخطاب والتأويل، ص٧٤)

ج. دور القارئ

تبنَّى أبو زيد فكرة مركزيَّة القارئ في إنتاج المعنى، وهو ما يجعله يقترب كثيراً من تأويلات ريكور، حيث تصبح الذات المؤوِّلة عنصراً فاعلاً لا متلقياً سلبياً.

٤.نقد التفسير التقليدي في ضوء الهرمنيوطيقا

لم يخفِ أبو زيد موقفه من القراءات التقليديَّة التي تحوّل النص إلى مصدر للسلطة أو إلى أداة للإقصاء، فقد اعتبر أنَّ التفسير التقليدي يقوم على (افتراض التطابق التام بين النص وفهمه)، وهو أمر يتجاهل تعدد القراءات، كما يغفل عن الدور التاريخي للنص والمؤوِّل.

وقد عبّر عن ذلك بقوله: >إذا احتكر أحد معنى النص وفرضه على الجميع، فقد حوَّل النص إلى سلطة، وهذا ما يناقض طبيعته المفتوحة على التأويل<. (أبو زيد، دوائر الخوف، ص٣٦)

.5إشكاليَّة التوفيق بين الهرمنيوطيقا والمرجعية الإسلاميَّة

على الرُّغم من عمق مشروعه، إلاَّ أنَّ توظيف أبو زيد للهرمنيوطيقا الغربية أثار إشكالات جوهريَّة، أهمها:

أ . هل يمكن تطبيق مناهج نشأت في سياق علماني مسيحي على نص نشأ في بيئة دينيَّة مختلفة؟

ب . هل تُفقد القراءة التأويليَّة بعض عناصر القداسة التي يتطلبها النص القرآني؟

وقد حاول أبو زيد الردَّ على هذه الاعتراضات، وبالتأكيد فإنَّ مشروعه لا يزعزع قداسة النص، بل يزعزع طريقة التعامل الخاطئة معه، وأنَّه لا يستورد المنهج الغربي بحذافيره، بل يُعيد تأصيله ضمن بيئة إسلاميَّة.

يُمكن القول: إنَّ مشروع نصر أبو زيد التأويلي يُمثِّل واحدة من أكثر المحاولات الجريئة في مجال إعادة إنتاج العلاقة مع النص القرآني، وقد استطاع من خلال تبنِّيه للمنهج الهرمنيوطيقي أن يقدِّم قراءة جديدة للقرآن، قراءة تؤكِّد أنَّ >المعنى ليس جاهزاً في النص، بل يُنتج عبر التفاعل معه<.

ومع ذلك فإنَّ هذا المشروع لم يكن خالياً من الإشكالات، إذ ظل دائماً محل جدل حول حدود استخدام المنهج الغربي، وإمكانية التوفيق بين المعرفة الحديثة والمرجعية الإسلاميَّة. وهذا ما يدعونا إلى دراسة الأثر الذي تركه هذا المنهج في نتاجه الفكري، وهو ما سيتناوله الفصل الثالث من هذا البحث.

الفصل الثالث: نتائج المشروع التأويلي عند نصر حامد أبو زيد

إنَّ أيَّ مشروع تأويلي لا يُقاس فقط بمناهجه النظرية، بل يُقاس أيضاً بثماره ونتائجه، فيا تُرى إلى أيِّ مدى استطاع هذا المشروع أنْ يعيد تشكيل العلاقة بالنص، ويغيِّر الوعي الديني والثقافي، ويقترح بدائل قرائية قابلة للتطبيق؟ وفي حالة نصر حامد أبو زيد نجد أنَّ مشروعه الهرمنيوطيقي لم يبقَ حبيس المفاهيم النظرية، بل أفرز مجموعة من النتائج الفكريَّة الجريئة التي طالت المفهوم الديني نفسه، وموقع النص، ودور العقل، وإمكانات التأويل.

١. تحوُّل النص من كيان مقدَّس إلى خطاب تاريخي مفتوح

من أبرز نتائج المشروع أنَّ أبو زيد لم ينظر إلى النص القرآني بوصفه كياناً متعالياً عن التاريخ، بل بوصفه خطاباً لغوياً حياً، أنتجه الوحي في سياق بشري. وهذا لا يعني نزع القداسة عن النص، وإنما يعني نزع القداسة عن الفهم البشري للنص.

وقد أكّد ذلك بقوله: >القرآن نص لغوي، تشكّل في شروط ثقافيَّة وتاريخيَّة، وبالتالي فإنَّ فهمه لا يكون إلاَّ من خلال الوعي بتلك الشروط< (أبو زيد، الخطاب والتأويل، ص٨٩)

إنَّ هذا التحوُّل أعاد الاعتبار إلى الزمن والتاريخ والسياق في قراءة النص، في مقابل التجريد والتنزيه المفرط الذي كانت تقوم عليه القراءات التقليديَّة.

٢. تقويض السلطة التفسيريَّة الأحادية

من النتائج الجوهريَّة الأخرى أنَّ أبو زيد قوض ما يُسمى بـ (الاحتكار الفقهي للمعنى)، حيث رفض أن يكون تفسير النص حكراً على مؤسَّسة دينيَّة أو فقهيَّة واحدة، واعتبر أنَّ كلَّ قارئ يمتلك مشروعية التأويل ما دام يمتلك أدوات الفهم.

وكتب يقول: >الخطاب الديني السلطوي لا يعترف إلاَّ بفهم واحد؛ لأنَّه يُنتج معنى يخدم السلطة، وليس الحقيقة< (أبو زيد، دوائر الخوف، ص١١٢)

بهذا الطرح، فإنَّ مشروعية التأويل تنتقل من المؤسسات إلى الأفراد، ومن الفقهاء إلى المجتمع، وهو ما أثار سخطاً واسعاً من التيارات السلفية التي رأت في ذلك (فوضى تأويليَّة)، بينما رأى أبو زيد أنَّه (تحرير للوعي من سلطة الوهم المقدَّس).

٣.إعادة تأصيل العقل في بنية التفسير

لقد عمل أبو زيد على استعادة دور العقل في تفسير النصوص، لا بوصفه خصماً للوحي، بل بوصفه الوسيط الطبيعي للفهم والتأويل. وبهذا عارض القراءات التي كانت تقوم على النقل المجرَّد والتسليم المطلق.

وقد نقل عن المعتزلة موقفهم النقدي من النص قائلاً: >حين يتعارض ظاهر النص مع مقتضيات العقل يجب تأويل النص لصالح العقل<. (أبو زيد، مفهوم النص، ص١١٥)

وبذلك فإنَّ تأويل النص عنده لا يمكن أن يتم إلاَّ عبر عقل نشيط حرٍّ غير خاضع لمسبقات السلطة أو التقديس.

٤. إحياء البعد الإنساني في الخطاب القرآني

من بين النتائج البارزة أيضاً أنَّ أبو زيد أعاد توجيه الانتباه إلى البعد الإنساني والتواصلي في الخطاب القرآني، بمعنى أنَّ الله تعالى في القرآن الكريم يخاطب الإنسان بوصفه كائناً حراً عاقلاً، وليس كائناً منفعلاً.

وهذا ما يتجلَّى في قوله: >القرآن ليس كتاب أحكام فقط، بل كتاب خطاب وتربية وجدال وحوار، ولا يمكن عزله عن البعد الإنساني لهذا الخطاب<. (أبو زيد، نقد الخطاب الديني، ص٧٧)

وبهذا تصبح العلاقة بين الإنسان والنص علاقة مشاركة، لا علاقة خضوع.

٥.التأويل فعل تحرر

أخيراً، فإنَّ نصر أبو زيد ينظر إلى التأويل بوصفه أداة تحرر ثقافي وسياسي، لا مجرد عملية فهم. فحين يصبح النص محتكراً من قبل سلطة دينيَّة فإنَّه يتحول إلى أداة قمع، أمَّا حين يُقرأ قراءة تأويليَّة فإنَّه يعود إلى وظيفته الأساسية كمنبعٍ للمعنى والحرية.

وقد كتب يقول: >التأويل لا يحرر النص فقط، بل يحرر العقل من أَسْر النصوص المغلقة<. (أبو زيد، التفكير في زمن التكفير، ص١٣١)

لقد أعاد نصر حامد أبو زيد عبر مشروعه التأويلي رسم ملامح العلاقة بين القارئ والنص، وبين العقل والوحي، وبين السلطة والمعنى، فجعل من التأويل فعلاً حراً يتجاوز القيود الفقهيَّة، وينفتح على اللغة والتاريخ والإنسان.

الفصل الرابع: نقد مشروع نصر حامد أبو زيد بين التأييد والمعارضة

كان مشروع نصر حامد أبو زيد في الهرمنيوطيقا القرآنيَّة من أكثر المشاريع الفكريَّة التي أثارت جدلاً واسعاً في العالم العربي والإسلامي. وبين مَن رأى فيه فتحاً تأويلياً ضرورياً لعصر الحداثة، ومَن اتهمه بتفكيك قداسة النص والتعدي على أصول الإسلام، تباينت المواقف بصورة حادة. في هذا الفصل نحاول تفكيك تلك المواقف عبر عرض أبرز الاعتراضات الفكريَّة والعقدية عليه، والردود التي قُدِّمت في المقابل، لنصل إلى تقييم نقدي شامل.

١. نقد التيار التقليدي: اتهامات التفكيك والتغريب

كان التيار السلفي التقليدي أول مَن واجه مشروع نصر أبو زيد بالرفض القاطع، حيث اتُّهم بأنَّه:

أ. ينزع القداسة عن النص القرآني

اعتبر بعض الفقهاء أنَّ أبو زيد يُعامل النص بوصفه (خطاباً بشرياً)، وهو ما يعني ـ برأيهم ـ أنَّه يُسقط الصفة الإلهيَّة عنه. وقد وصفه الشيخ يوسف القرضاوي بـ >المُلبِّس الذي أراد أن يُقدِّم علمنة النص بلبوس عقلاني<. (القرضاوي، الصحوة الإسلاميَّة بين الجحود والتطرف، ص١١٨)

ب. يُطبّق مناهج غربية علمانية على نص ديني مقدَّس

اتهمه خصومه بأنَّه (يستورد) مناهج من خارج البيئة الإسلاميَّة، مثل البنيوية والهرمنيوطيقا الغربية، الأمر الذي يؤدِّي إلى تفكيك النص من داخله عبر عزله عن قواعد الفهم الفقهي والتراثي؛ فـ >أبو زيد لم يفعل شيئاً سوى أنَّه نقل ما عند المستشرقين، وسمَّاه علماً إسلامياً تأويلياً<. (الجزيري، من نقد النص إلى نقد الدين، ص٤٤)

٢.نقد الإسلاميين التقدميين: التأويل دون مشروع تغييري

لقد وُجِّهت انتقادات لأبو زيد حتى من داخل صفوف المثقفين الإسلاميين التقدميين، أبرزها أنَّه:

أ ـ ركَّز على الجانب النظري دون تقديم برنامج عملي إصلاحي.

ب ـ اعتمد على أدوات حداثية دون إعادة تأصيلها إسلامياً.

كما كتب فهمي جدعان: >التأويل عند أبو زيد يظل حبيس المنهج دون أن يتحوَّل إلى استراتيجية تحررية واضحة المعالم<. (جدعان، المحنة العربيَّة، ص٢٣٢)

٣. نقد الفلاسفة الحداثيين: حدود الهرمنيوطيقا في النص القرآني

من جانب آخر قدَّم بعض المفكِّرين الحداثيين نقداً داخلياً لمنهج أبو زيد نفسه، معتبرين أنه:

أ. لم يحسم مسألة مركزيَّة القارئ والنص

فهل القارئ يُنتج المعنى تماماً أو أنَّ للنص سلطة داخليَّة تقيد المعنى؟ لقد بقي المشروع متأرجحاً.

ب. أبو زيد لم يفكِّك التراث كما ينبغي

ظلَّ أبو زيد ـ في نظرهم ـ أسيراً لنقد التفسير لا نقد البنية التكوينية للنص على عكس محمد أركون الذي دعا إلى أنثروبولوجيا للقرآن.

وقد أشار عبد المجيد الشرفي إلى أنَّ >قراءة أبو زيد ما زالت خجولة مقارنة بما وصلت إليه علوم اللسان والأنثروبولوجيا<. (الشرفي، الإسلام والحداثة، ص١٦٦)

٤. الردود التأصيلية المؤيدة

في مقابل ذلك كتب عدد من الباحثين في الدفاع عن أبو زيد، مشددين على أنَّ:

أ. أبو زيد لم ينزع قُدسية النص بل قدسية الفهم

وقد صرَّح هو نفسه في أكثر من مناسبة أنَّ >الذي يُقدَّس هو النص، أمَّا الفهم فهو بشري، ومُعرَّض للخطأ والصواب<. (أبو زيد، التفكير في زمن التكفير، ص١٣١)

ب. نقد التراث لا يعني نقد الدين

يُفرِّق أبو زيد بين (الدين) كمنظومة وحي، و(الفكر الديني) كمحصلة تاريخيَّة بشرية، وهو يؤكد أنَّ مشروعه منصبٌّ على الثاني لا الأول.

ج. قراءة النص كخطاب لا تعني تفريغه من محتواه الإلهي

بل تعني تأكيد أفق التلقي الإنساني الذي يفرض تعددية في التأويل بما يفتح المجال أمام تطوير الفهم لا تعطيله.

وقد كتب الباحث المغربي عبد الجليل الكور: >نصر أبو زيد أعاد الاعتبار للإنسان القارئ دون أن يسقط النص من عرش قدسيته<. (الكور، النص والخطاب والتأويل، ص٢١٢)

٥. تقييم نقدي لمجمل المشروع

انطلاقاً من هذا الجدل يمكن تقديم تقييم متوازن لمشروع نصر حامد أبو زيد:

أوَّلاً: إيجابيات المشروع

أ ـ تحريك المياه الراكدة في حقل الدراسات القرآنيَّة.

ب ـ إدخال أدوات تحليل الخطاب في قراءة النص.

ج ـ إعادة الاعتبار للعقل في التأويل.

د ـ تعزيز مفهوم التعددية في الفهم الديني.

ثانياُ: نقاط الضعف

أ ـ غموض بعض المفاهيم، كالتمييز بين النص والخطاب.

ب ـ توظيف منهج أوروبي دون تأصيله معرفياً في السياق الإسلامي.

ج ـ ضعف الارتباط بأصول العلوم الإسلاميَّة كالبلاغة وأصول الفقه.

لقد جسَّد مشروع نصر حامد أبو زيد نقطة تحوُّل في التفكير الديني المعاصر بين مَن رأى فيه خطوة نحو تحرير العقل الإسلامي، ومَن رآه بداية الانفلات التأويلي. وبين الموقفين يبقى مشروعه جريئاً مثيراً

وإشكالياً في آن. ومع ذلك فإنَّ القيمة العلميَّة الحقيقية لهذا المشروع تكمن في أنَّه فتح أبواباً جديدة لقراءة النص قد لا تكون كاملة، لكنها ضرورية في عالم تتقاطع فيه الهويات والقراءات.

الخاتمة

لقد شكَّل مشروع نصر حامد أبو زيد في الهرمنيوطيقا القرآنيَّة إحدى أكثر المحاولات الفكريَّة إثارةً للنقاش في المشهد الثقافي العربي المعاصر، ليس بسبب جرأته التأويليَّة فحسب، بل لكونه حاول أن يعيد تشكيل العلاقة بين الإنسان والنص، وبين التراث والحداثة، وبين العقل والدين. انطلق أبو زيد من قناعة مركزيَّة مفادها أنَّ (فهم النص فعلٌ بشري)، وأنَّ هذا الفهم لا يمكن فصله عن السياق التاريخي واللغة والمؤسسات الثقافيَّة التي تنتجه.

لقد رأينا من خلال الفصول السابقة أنَّ المشروع التأويلي عند أبو زيد لم يكن مجرَّد محاولة للقراءة الحديثة للنص، بل كان موقفاً معرفياً وفلسفياً من التراث الديني بأكمله؛ فقد سعى إلى أنْ يضع القرآن في دائرة التاريخ، وأنْ يجعل من التأويل أداةً للتحرُّر لا وسيلةً للخضوع، محاولاً بذلك تفكيك الأسس التي قامت عليها السلطة الدينيَّة التقليديَّة.

ومع أنَّ مشروعه قد تعرَّض لهجوم عنيف من المؤسسات الدينيَّة وبعض المفكِّرين المحافظين، إلاَّ أنَّه فتح آفاقاً جديدة للتفكير، وساهم في إعادة النقاش حول مركزيَّة النص، ووظيفة التأويل، وحدود الفهم. وقد ظهر جليّاً أنَّ مشروع أبو زيد لم يكن دعوةً للإلحاد أو نزع قداسة النص، بل كان سعياً لتحرير المعنى من الانغلاق، وتوسيع أفق الفهم الديني.

ومع ذلك لا يخلو المشروع من مواطن ضعف، أبرزها غموض بعض المفاهيم المركزيَّة، والتقاطع غير المحسوم بين المناهج الغربية والمرجعيات الإسلاميَّة، والبعد النسبي عن الاشتغال التأصيلي العميق في علوم التفسير وأصول الفقه.

لكن تبقى القيمة الكبرى لمشروع نصر حامد أبو زيد أنَّه طرح أسئلة حرجة ومشروعة حول علاقة المسلم المعاصر بنصه المؤسس، وأسَّس لمنهجية في التأويل قوامها العقل والسياق والحرية.

التوصيات:

أ ـ إعادة دراسة المشروع التأويلي لنصر حامد أبو زيد في ضوء تطورات الهرمنيوطيقا المعاصرة، وخصوصاً الأعمال المتأخرة في فلسفة اللغة وتحليل الخطاب.

ب ـ العمل على تأصيل المنهج التأويلي داخل البنية المعرفيَّة الإسلاميَّة، بما يراعي الخصوصيات الثقافيَّة والروحية، مع الاستفادة من المناهج الغربية دون خضوع لها.

ج ـ فتح نقاش أكاديمي بين المفكِّرين الإسلاميين والحداثيين حول حدود التأويل، ومشروعية التجديد في فهم النصوص الدينيَّة.

د ـ إدراج فكر أبو زيد ضمن مناهج الدراسات الإسلاميَّة المقارنة، لا بوصفه حالة استثنائية، بل كجزء من تطور الفكر الديني الحديث.

هـ ـ تشجيع قراءات نقديَّة داخل الحقل الديني لمشروع أبو زيد تستند إلى أدوات علميَّة لا إلى تكفير أو إسقاط سياسي، لضمان بيئة فكريَّة نزيهة.

قائمة المصادر والمراجع:

١ ـ أبو زيد، نصر حامد.

أ ـ الخطاب والتأويل ـ قراءة في نصوص القرآن الكريم. القاهرة ـ دار الهلال، ١٩٩١.

ب ـ دوائر الخوف بين التكفير والتفكيك. القاهرة ـ دار الشروق، ١٩٩٧.

ج ـ مفهوم النص ـ دراسة في النظرية والتأويل. بيروت ـ مركز دراسات الوحدة العربيَّة، ١٩٩٤.

د ـ التفكير في زمن التكفير. القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٣.

٢ ـ القرضاوي، يوسف ـ الصحوة الإسلاميَّة بين الجحود والتطرف. القاهرة ـ دار الفجر، ١٩٩٨.

٣ ـ الجزيري، عبد الوهاب ـ من نقد النص إلى نقد الدين. بيروت ـ المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٠.

٤ ـ جدعان، فهمي ـ المحنة العربيَّة بين التقليد والحداثة. عمان ـ دار فضاءات، ٢٠٠٥.

٥ ـ الشرفي، عبد المجيد. الإسلام والحداثة ـ قراءة نقديَّة. الرباط ـ دار المعارف، ٢٠٠٢.

٦ ـ الكور، عبد الجليل ـ النص والخطاب والتأويل. الرباط ـ دار توبقال، ٢٠٠٤.

٧ ـ غادامير، هانز، جورج ـ الحقيقة والمنهج. ترجمة: محمد عابد الجابري، بيروت ـ دار النهار، ١٩٩٨.

٨ ـ ريكور، بول ـ التفسير والنقد. ترجمة: سامي عبد الحميد، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧.